# المنقذ بلا طموح

وهكذا قام بتوزيع الجنود الألبان التابعين له في العاصمة، وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير، وبدأ الشعب يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية، ويستدعي البرديسي المستشيط غضبًا العلماء ووجهاء العاصمة، ويحملهم شاتمًا مسئولية ما يقع من أحداث، فيدافع محمد علي عن العلماء، ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري، وبهذا الموقف يبرهن للوجهاء أنه لا يخشى أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب، وبطريقة غير محسوسة لا يمنح للشعب صورة المنقذ فقط، بل والمنقذ بلا طموح.

وظل محمد بك لاظ ينظر إلى الباشا منتظرًا تعليماته، ويفكر فيما يجب فعله في هذا الظرف العصيب، فقد كان يساوره القلق بسبب ثورة الشعب، وغضب المماليك الذي امتد ليشمل جميع الجنود، فالوضع ملتهب، خاصة عندما عرف أن الجنود الألبان أنفسهم بدأوا السخط مطالبين بمستحقاتهم المالية هم أيضًا، فكيف سيتصرف الباشا؟ وتمنى لاظ لو أن بإمكانه اختراق عقل هذا الداهية الهادئ ليعرف فيمَ يفكر، ولكن هيهات.. ويفاجأ الباشا محمد بك لاظ قاطعًا حبل أفكاره قائلًا:

-أرسل جنودنا الأرناؤوط إلى عثمان بك البرديسي ليطالبوه برواتبهم..

اندهش لاظ بك وزادت حيرته، ولكنه سينفذ الأوامر على أيَّة حال دون تردد، فقد اعتاد تنفيذ أوامر الباشا دون أن يفهم مغزاها، فكم فعل ذلك كثيرًا ثم تبين له حسن تدبير الباشا! وبالفعل، اقتحم الجنود الألبان مكان اجتماع البرديسي وإبراهيم بك وباقي الأمراء بقوة؛ مطالبين بمستحقاتهم المالية، وأُسقِط في أيدي زعماء المماليك، ورأوا أنفسهم حيال قوتين؛ ثورة الأهالي من جهة، وجنود محمد علي من جهة أخرى، فلم يجدوا سبيلًا للنجاة سوى الفرار من القاهرة. وعاد لاظ بك للباشا ليخبره بما حدث وأنه لم يعد هناك ما يمنع من سيطرته على الحكم.

وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر، فالمماليك قد دالت دولتهم، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد، والوالي التركي أحمد خورشيد باشا في القلعة سجين، وليس ثمة قوة حربية سوى الألبانيين "الأرناؤوط" الذين تحت قيادته، ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب، وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية، بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقًا به. وكان أحمد خورشيد باشا الوالي العثماني المتواجد بالقلعة هو الوالي الأخير الذي قام السلطان العثماني بتعيينه، وكان محمد علي يسعى للتخلص منه.

ولكن سيترك هذه المهمة لزعماء الشعب، وكان قد وصل خورشيد باشا إلى بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر منذ رحيل الحملة الفرنسية، فأولهم خسرو باشا وقد خُلِع، ثم طاهر باشا وقد قُتِل، ثم أحمد باشا وقد طُرِد، ثم علي باشا الجزائرلي وقد قُتِل، ثم خورشيد باشا..